أثر الغزو الثقافي على الأمن الاجتماعي

قراءة سوسيولوجية في التعريب والهوية والازدواجية اللغوية

The impact of cultural invasion on social security
A sociological reading in Arabization - identity and bilingualism

عبد السلام عزلاوي[1]
Abdesslam Azlaoui[1]
[1]جامعة الجلفة، abdesslam.azlaoui@mail.univ-djelfa.dz

تاريخ الاستلام: 24 /2021/11. تاريخ القبول: 2023/03/02 تاريخ النشر: 2023/07/01

ملخص:

يهدف البحث توجيه الأنظار إلى الصراع القائم داخل المجتمع الجزائري حول لغته القومية، فهو يركز على مسألة هيمنة الفرنسية التي هدفت إلى تجريد المجتمع الجزائري من كل خصائص هويته الثقافية، وهو الغزو الثقافي الذي لم يتوقف لحظة من خلال تقديم الثقافة الفرنسية كأداة للرقي والترقي، في حين تصور الثقافة العربية على أنها لغة تخلف وتراجع، مما أسس لوجود شريحتين مختلفتين يشكل صراعهما تهديدا للأمن الاجتماعي المنشود.

ويهدف البحث إلى كشف خطط الغزو وتزييفه للوعي الاجتماعي في مسألة التعريب والهوية ويلقي الضوء على الآراء المتناقضة حول الموضوع رغم نفس وحدة المصير، وكشف أسباب التعدد اللغوي في الجزائر الذي عقد عملية إيجاد حل على المستوى السياسي والتربوي.

كلمات مفتاحية: الغزو الثقافي، الصـــراع اللغوي، التعريب، الهوية، الهيمنة اللغوية، ايديولوجيا شعبية.

Abstract:

The research aims to draw attention to the conflict within Algerian society over its national language, It focuses on the issue of French hegemony, which aimed to strip Algerian society of all the characteristics of its cultural identity, It is the cultural invasion that did not stop for a moment by presenting French culture as a tool for sophistication and advancement, while portraying Arab culture as a language of backwardness and decline, On the other hand, Arab culture is portrayed as a

language of backwardness and retreat, which establishes the existence of two different segments whose conflict poses a threat to the desired social security.

The research aims to reveal the plans of the invasion and its falsification of the social awareness in the issue of Arabization and identity, and sheds light on the contradictory opinions on the subject despite the same unity of destiny, and exposing the causes of multilingualism in Algeria, which complicated the process of finding a solution at the political and educational level.

Keywords: Cultural invasion, linguistic conflict, Arabization, identity, linguistic domination, popular ideology.

المؤلف المرسل: عبد السلام عزلاوي

1. مقدمة:

حدد الانثروبولوجيون الثقافة بكونها جملة الأنماط السلوكية المشتركة بين أفراد المجموعة والمتوارثة عن طريق التعلم الذي تكون اللغة وسيلته الأساسية، إذ هي المكون الثابت للهوية والشخصية والتفكير (مشعان ، 2006، صفحة 9)، وفي تعريف "البور Alport[1]" تحتفظ اللغة بالتراث الثقافي جيلا بعد جيل، وتنقل المعارف والأفكار البشرية قيمها الاجتماعية لأنها تستخدم للدلالة على معارفه وأفكاره (غربي، 2015، صفحة 271)، ذلك أنها نقلت تراثنا وأفكارنا وقيمنا منذ العصور القديمة، فهي وعاء ثقافة وأداة تعبير إنسانية، اختص الله بها البشر وميزهم عما سواهم.

ولقد تكاملت العربية والإسلام لأنها نواته الأساسية التي انتشرت حيثما انتشر، إذ هي جزء من ماهيته وأداة لفهمه واستيعابه، وقد انكب على تعلمها كل معتنق للإسلام، لأنها عنوانه وواجهته الثقافية والاجتماعية، فتفاخروا بمعرفة أسرارها ودقائقها، إذ كانت لغة العلم والحضارة والثقافة الإسلامية، ولم ينشأ أي تصادم اجتماعي في التاريخ الإسلامي إلا من بعض الشعوبيين (المشهداني، 2018)[2]، فتكونت بذلك الأمة الإسلامية التي لسانها العربية ودينها الإسلام.

[1]- غوردون ويلارد ألبورت Gordon Allport : 1897-1967، عالم نفس أمريكي من أوائل الذين اهتموا بدراسة الشخصية، أسهم في تأسيس معايير القيم، ويعتبر من المؤثرين بشكل عميق في مجال علم النفس، اكتسب أهميته ودوره من خلال أفكاره الكثيرة عن العديد من الموضوعات المثيرة للاهتمام مثل الشائعات، والتحيز، وسمات البشر.

[2] - الشعوبية: حركة اجتماعية قومية ظهرت بوادرها في العصر الأموي، يرى أتباعها أن لا فضل للعرب على غيرهم من العجم. وقد تصل إلى حد تفضيل العجم على العرب والانتقاص منهم، نشأت كرد فعل مغالٍ لإحياء الدولة الأموية التعصب

لقد صرح الجنرال ليوطي (مارتي، 1925)[1]بأن العربية عامل أسلمة والمصلحة تستلزم عليهم زعزعة الإيمان بها في أوساط المسلمين من خلال تأسيس مدارس فرنسية كما اقترح الدوق دو روفيكو[2]، تعمل على إحلال اللغة الفرنسية شيئا فشيئا محل اللغة العربية ومنع التعليم العربي والإسلامي، وتشويه العرب وتصويرهم بالكسالى الذين لم يعرفوا التمدن والحضارة في إنكار عجيب للحضارات التي أنشأها العرب، إذ عرف العرب التمدن في الدولة المعينية[3] والسبئية[4] والحميرية (جواد، 1976)[5]التي لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم في بلاد اليمن وحضرموت.

لقد شكلت اللغة العربية رابطا معنويا قويا ساهم في صهر الأفراد في بوتقة واحدة لها المآل نفسه، فاستمسكت الأمة بلغتها وحافظت عليها بإصرار فريد يبرر رغبتها في العيش مستمسكة بما ورثته عن الأولين الذين قدسوها قداسة عظمى، جعلت خلفاءها وعلماءها يخشون الوقوع في أبسط

القبلي، حيث تعرض المسلمون غير العرب الموالي بفعل سياسة العودة إلى القبلية للتمييز، لكنها تحولت كما يقول علي شريعتي تدريجيا من حركة تسوية إلى حركة تفضيل العجم على العرب وعملت عبر ترويج المشاعر القومية وإشاعة اليأس من الإسلام إلى ضرب سلطة الخلافة.

[1] - لوي هوبير ليوطي1854-1934 جنرال فرنسي، وأول مقيم عام للمغرب بعد احتلاله من 1912 حتى1925، ومنذ سنة 1921 أصبح مارشال فرنسا، أما في الجزائر فقد أصدر في عام 1921، إلى رؤساء المناطق المدنية والعسكرية التعليمات بمنع تعليم العربية لأول مرة منذ الفتح الإسلامي وأول من طبقت عليهم التعليمات هي التجمعات الناطقة بالأمازيغية.

[2] - الدوق دي روفيقو، جنرال تولى أمور الجزائر ما بين 31 ديسمبر 1831 ومارس 1833، تميزت شخصيته بالقسوة والظلم، ومن أعماله في الجزائر تهديمه للكثير من المؤسسات الدينية منها جامع السيدة الكائن بمدينة الجزائر، وتحويل جامع كتشاوة إلى كنيسة كاثوليكية، لكن فشله في إخماد نار المقاومة عجل برحيله عن الجزائر.

[3]- الدولة المعينية: أقدم شعب عربي حمل لواء الحضارة، سكنوا منذ أن ظهروا في التاريخ على المسرح السياسي في الجوف بين نجران وحضرموت، مجتمعهم طبقي فيه الأرستقراطيون والعبيد، وقد اشتغلوا بالزراعة والتجارة، وكان بعضهم بدوا يرعى الماشية، ويعيش حياة ارتحال، وهم متدينون يعيرون الدين أهمية كبيرة، وللمرأة بينهم مكانة محترمة، وكان للمعينيين آلهة يقيمون لها المعابد، وعلى رأس تلك الآلهة ثالوث يمثل الزهرة والشمس والقمر.

[4] - الدولة السبئية: مملكة عربية يمنية نشأت في نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد في جنوبي الجزيرة العربية وهو نفس مكان دولة اليمن، وشكلت مملكة سبأ محور السلطات السياسية في جنوبي المنطقة العربية، كانت غنية بالمنتجات الزراعية والتوابل، وكانت تنقل ثروة تجارية عبر القوافل البرية والبحرية، وظلت لقرون مسيطرة على باب المندب، وقامت بإنشاء الكثير من المستعمرات على الشواطئ الأفريقية، تعدّ مأرب عاصمة الدولة.

[5]- الدولة الحميرية: مملكة جنوب غرب الجزيرة العربية يعود تاريخها إلى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد وحتى 525 م، أسسها الحميريون في اليمن لتهيمن على تجارة التوابل في الجزيرة العربية، عاصمتهم في مدينة ظفر القديمة التي كانت تقع في الجزء الجنوبي، لعبت القبيلة الحميرية دورًا في السيطرة على أراضي اليمن.

الأخطاء (الشاطر، 1983، الصفحات 12-13)[1]، ولم تنشأ هذه الظاهرة إلا بعد دخول الاحتلال الفرنسي حيث حاول زعزعة الاستقرار القائم من خلال محاربة اللغة العربية، لينشأ بعد ذلك تيار قومي عروبي يتبنى التعريب ردا على التشويهات اللغوية التي أحدثها الاستعمار، وسعى إلى خلق اثنيات داخل المجتمع الجزائري أرقت مساره تمظهر في صراع تيارين متناقضين، يدفع كل منهما إلى إثبات شرعيته ووجهة نظره، وبات المجتمع أسيرا بين إصدار قرارات وقرارات مضادة شكلت ظاهرة اجتماعية خضعت للكثير من الدراسات والبحوث تحت عناوين مختلفة، درست أسباب ودوافع ومآلات الصراع اللغوي والثقافي في الجزائر.

2.الغزو الثقافي والتعليم العربي:

إنّ الاستعمار لم يفرق بين المجال اللغوي والثقافي، فقد شن المستعمر حملة على الثقافة المجتمعية لإحداث شرخ على مستوى القيم بهدف القضاء على شخصية المجتمع الجزائري، لان المستعمر يعرف أن شل الذهنية ومسخ الإنسان بعد سلخه من شخصيته هما اللذان يسمحان بمواصلة ممارسة السيطرة في سائر الميادين (الزبيري، د.ت.، صفحة 20)، فلقد جعلها قضيته المركزية التي عمل عليها وحشد لها مختصين من اجل التأثير على مجتمع كامل كان تحت سياسة التجهيل، حيث رفض تعلم الفرنسية التي صارت حينها مقدمة للتنصير، وانكفأ حماية لبنائه القائم من العبث بتراثه الديني والثقافي، فالمجتمع الجزائري كان يملك لغته وثقافته التي تميزه، فاللغة من خصائص المجتمع تحمل سماته الحسية والمادية المرتبطة به.

لقد أفرزت هذه الوضعية صراعا اجتماعيا وإيديولوجيا وتعددا لغويا تمثل في مشكلة الهوية، قد يؤدي إلى فقدان الاستقرار والتماسك الاجتماعي الذي كان سائدا تاريخيا، فلا نستطيع بحالة من الحالات أن نسلم أن القيم الاجتماعية والدين يظلان محفوظين رغم تغيير اللغة، فهي وعاء ثقافي عبارة عن معاني عميقة وقيم ثابتة قد اجمع المختصون أنها واحدة من خمسة عناصر أساسية (فهمي حجازي، 1972، صفحة 151)[2]، يمكننا اتخاذها معيارا لتصنيف البشرية على الصعيد الاجتماعي والثقافي والسياسي بعدما كانت تدرس في جميع جهات القطر.

---

[1]- جاء عن أبي بكر رضي الله عنه انه قال: (لأن أقع فأسقط أهون علي من أن اقرأ فألحن)، ويروى أنه قيل لعبد الملك بن مروان: أسرع إليك الشيب فيقول: شيبني ارتقاء المنابر ومخافة اللحن، وكان يقول: إن الرجل يسألني الحاجة فتستجيب نفسي له بها، فإذا لحن انصرفت نفسي عنه.

[2] - جاء في كتاب "أصول البنائية في علم اللغة والدراسات الاثنولوجية" (هناك خمسة عناصر أساسية يمكن اتخاذها معيارا لتصنيف البشرية إلى أمم : الجنس المشترك والدين والقومية واللغة والثقافة واللغة والثقافة بوجه خاص دور بارز في هذا التصنيف)

3.الغزو الثقافي ودعوى التخلف الاجتماعي:

لقد ادعى المستعمر تخلف العربية كونها سنة اجتماعية كونية في مجتمع متخلف يخضع لقانون الغالب والمغلوب (ابن خلدون، 2003، صفحة 149)[1]، ولم تواكب أسباب التطور العلمي الحديث، ولم يحدث أي تجديد طيلة قرن وربع رغم أنها لم تنقطع في الجزائر بل بقيت تدرس بعض التراث في الزوايا والكتاتيب، وتقدم المبادئ الأولية فيهما، والسبب يعود إلى جمود المجتمع المفتعل الذي منع الاستفادة من الضروريات المعاصرة، لقد تماشى المجتمع في تنظيم قيمه مع الظروف كونه في احتياج دائم إلى الثقافة، وقد نشأ لدى المجتمع المغلوب ثلاثة أمور رئيسية للسلوك الفكري (الاشرف، 2007)[2] ، أدت في النهاية إلى صراع نفسي اجتماعي أشبه ما يكون بسوء التغذية[3]، لان الثقافة الحاصلة من خلال لغة أجنبية تسعى إلى نسخ نماذج وأذواق سقيمة، في حين أن الثقافة المنشودة تلبي الخصوصية القومية والاقتباس من الثقافات الأجنبية (الاشرف، 2007، صفحة 421).

إنّ عملية الاقتباس من الثقافات الأجنبية[4]، حثت رجال الإصلاح الديني الذين قاموا على إحياء الثقافة العربية الإسلامية للمجتمع الجزائري ولو بقيت منعزلة قليلا نتيجة المشاكل التي كان يعانيها المجتمع، فلقد تشكلت ثقافة هجينة شكلت خطرا على الشعور القومي الذي نبع من الطبقة الكادحة لمقاومة الفرنسية وأثرها، وقد تجلى الصراع اللغوي والثقافي بصورة واضحة في سياسة

---

[1]- جاء في الفصل الثالث والعشرين: (إن المغلوب مولع أبدا بتقليد الغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك: أن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه: أما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب ...).

[2]- يعدد الصور الثلاثة من السلوك الفكري الخاص بالإنسان المغلوب كالتالي:

- مرحلة الحل الوسط بين الماضي والحاضر.
- مرحلة اجتهاد المغلوب لتعليم نفسه.
- مرحلة الشعور بالسخط وعدم الرضا.

[3]- يشبه الاضطراب النفسي والاجتماعي نتيجة السخط وعدم الرضا بسوء التغذية عند الإنسان عندما يكون مصحوبا برغبات غير مستجابة، إذ يتوهم نفسه بصورة الشبعان والجائع تناوبيا دون أن يفكر لحظة بأنه مريض كما يمرض الناس الآخرين.

[4]- لا يقصد بالثقافة الأجنبية في هذا الباب سوى الثقافة الفرنسية التي كانت مهيمنة ولا زالت على المجتمع الجزائري.

الاندماج[1] التي سنتها القوانين الفرنسية، فالقومية نشأت لتحمي المجتمع وتصحيح انحرافاته وإكمال نقائصه.

لقد فقدت اللغة القومية مكانتها الأولى وكان هدف الاستعمار إحلال مؤسساته محل مؤسسات الشعب المغلوب (الاشرف، 2007، صفحة 429)، فقد حرمت فرنسا الإفراد من التعلم وهدمت معاهدهم ومساجدهم ومدارسهم لقطع الصلة بين المجتمع وبين لغته وثقافته، لإنتاج مجتمع لا يتحكم في لغته الرسمية والقومية، والجهل بها الجهل التام إلا من بعض الأفراد في الزوايا المتناثرة هنا وهناك، وخلق حالة من الاستلاب (أبو أصبع، 2005، صفحة 283)[2] كظاهرة اجتماعية جندت فيها جميع وسائل التدمير للمؤسسات ومنع الأفراد من ممارسة حق التعلم، وإحراق وإتلاف مكتبات بالكامل، فهي حرب شاملة على العربية لما تحمله لغة الأمة لأمتها ولسنا نزايد إذا قلنا أنها معالم شخصية لأي مجتمع من تاريخ وتراث وعلوم وغيرها بل هي لغته، وقد جاءت هذه الحرب الشعواء في أشكال متنوعة عنيفة مباشرة كما أسلفنا أو غير مباشرة استعملت فيها إغراءات مادية أو غير مادية، جعلت قطاعا عريضا من النخبة يعزف عن لغته إلى الفرنسية، وانحطت العربية في أعين أهلها خصوصا وان المجتمع آنذاك أكثره لا يعي أهمية اللغة في حياته الاجتماعية حيث اخذ يحث أبناءه على تعلم الفرنسية كمصدر للعيش.

اللغة العربية ليست منفصلة عن محيطها الاجتماعي الذي تفكك بفعل المحتل، فليست اللغة عاجزة أو متخلفة في ذاتها بقدر ما تتبع محيطها الذي تعيشه لعل أكثر اللغات معنية بالتجارب السوسيولوجي والتناغم من حيث هو تنوع لغوي وثقافي، هي اللغة العربية بوصفها لغة الاتصال الدعوي بالأساس حيث يبدو كما لو انه فريضة إذ كان سؤال اللغة في بداية الانتشار والتوسع من القبلية إلى العالمية هو بالأساس الدعوة والتواصل السوسيولوجي في داخل الجزيرة العربية، ثم سؤال معرفي تعلق بإنتاج العلوم والمعارف والإسهام في الأثر الحضاري، سؤال بالتفاعل والإثراء اللغوي والعلمي بترجمة مما عند الآخرين من معارف ومدهم بما لدينا من معارف وهو ما جعل

---

[1]- إن السياسة الإدماجية التي انتهجتها فرنسا عبر مراحل تاريخها كانت تقوم على محورين التجنيس والمواطنة، والمجالات التي طبقت فيها لم تتخذ باسم المساواة وتطبيق القانون المشترك، وتميزت هذه السياسة في عهد الجمهورية الثالثة بتطبيق سياسة مزدوجة في المجال الواحد، حيث طبق الإدماج التام على الكولون مع إخضاع "الأنديجان" المسلمين للإدماج الجزئي والحذر

[2]- الاستلاب هو عبارة عن حالة معرفية تحقر الذات ومعارفها وعلومها وتمجد علم الآخر وثقافته، وتسعى بكل إمكاناتها للاندماج والذوبان فيها، فالاستلابيعني انسلاخ الشخص عن نفسه ليصبح خاضعا ومتمثلا بشخص آخر، أي في حالة نفسية تجعل الفرد يبتعد وينبذ ثقافته لصالح ثقافة وافدة.

العربية أكثر اللغات القائمة على التعايش مع اللغات واللهجات الأخرى (فرحاتي، 2015، صفحة 14) أي أنها حتى ما وجدت حاضنة قوية واستقلالية ركبت موجة التطور ولحقت به وهو ما يفسر عدم موتها بل بقيت محافظة على نقائها وقوتها عبر القرون في حيت فشلت لغات أخرى في نفس الوضعية والمصير.

4.الغزو الثقافي وإحياء اللهجات المحلية:

إن العربية لغة التعامل اليومي، وأداة سهلة في الحياة اليومية، وأي فشل وقع يرجع لكون 75% من المجتمع الجزائري أمي، فان كنا نحتاج إلى الفهم الواقعي والتفاهم الاجتماعي لابد لنا من لغة واحدة، والمفروض ترقية المجتمع عن طريق التعليم إلى الإلمام بها عوض خلق دارجة مشوهة بتراكيب فرنسية، لان ترقيتها عوض ترقية الدارجة التي من سماتها التعدد في القطر الجزائري، تمنع تكون بورجوازية انتهازية تتحكم في مصير المجتمع كما هو حاصل اليوم.....، ولسنا ندري هل هذه الدعوة هي امتداد للدعوة بتعليم العامية (شاكر، 1385، الصفحات 153-157)[1] التي ظهرت في المشرق ودفنت في وقتها أم هو اجتهاد توصل إليه رغم أننا لا نقره عليه.

كان تأثير الفرنسية على المجتمع ثقيلا ومؤثرا، واصبح ظاهرة اجتماعية غير طبيعية، لان المجتمع تعلم أنماط الحياة والثقافة متركزة على اللغة الفرنسية وثقافتها، التي تصطدم حتما بالعربية التي يتعامل بها المجتمع، والتي وصفها الاشرف بالمهاترات الفلسفية والمساجلات في

[1]- ظهرت بين 1863-1882 في مصر وسوريا بوادر تأسيس الجمعيات التبشيرية الكبرى وأكثر رجالها ليسوا قسوسا، حيث وضعت هذه الحملة الصليبية خططا جديدة لقلب العالم الإسلامي بعد طول احتكاك به، أفرزت ظهور كتاب ولهلم سبيتا الالماني وباللغة الألمانية في مصر الداعي إلى استبدال الفصحى بالعامية، وأيده مقال بنفس الموضوع في جريدة المقتطف بحجة صعوبة اللغة العربية الفصحى والبعد عن الحديث بها قياسا على الفرنسية والايطالية وغيرها عن اللغة اللاتينية مع انه قياس فاسد وباطل، ولم يكن يراد بهذه الدعوة إلا إحداث صدع في النهضة، واستحياء فتنة، وزرع البلبلة، أملا أن يوجد من أنفس المسلمين من توافق هذه المقالة هواه فيتولى إذاعتها بين الناس تحقيقا لوصية القس زويمر الذي قال: "يجب أن يكون تبشير المسلمين بلسان رسول منهم، لان الشجرة يجب أن يقطعها احد أبنائها"، لقد جاءت هذه الدعوة لهدم اللغة العربية، وجعل اللغات الأجنبية مقدمة عند المثقفين على لغة الآباء والأجداد، حيث لم يكن للمبشرين تأثير يذكر على أبناء البلاد العربية، فحيل بينهم وبين لغتهم لتنشأ الفجوة بين التعليم ولغة التعليم التي اتخذوها ذريعة لهذه الدعوة، فصار المتخرج من بالمدارس الأجنبية يتقن لغة الاستعمار ولا يتقن لغته، وأنشئت المدارس والفت الكتب لذلك تحقيقا لتوجيه زويمر الذي بين أن اللغة العربية هي الرباط الوثيق الذي يجمع ملايين المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم: "انه لم يسبق وجود عقيدة مبنية على التوحيد، أعظم من عقيدة الدين الإسلامي، الذي اقتحم قارتي افريقية وآسيا الواسعتين، وبث في مائتي مليون من البشر، عقائده وشعائره وتقاليده، وأحكم عروة ارتباطهم باللغة العربية".

الفصاحة والبيان (الاشرف، 2007، صفحة 435)، ذلك انه اتهم القائمين بالقصور وعدم استيعاب العلوم والتراث الإنساني، حيث يعتمدون على التلقين في مجال التعليم، كما ان حركة التعريب اتسمت بحركة عاطفية جوفاء واعتقادات باطلة عطلت نمو الثقافة الجزائرية.

5.الهوية العربية في وجه الغزو الثقافي:

اثبت علماء النفس أن الطفل لا يتعلم أسماء ومفردات مجردة، بل يربط بينها وبين تصورات ذهنية وأفكار عن أشياء، فالطفل في الجزائر يولد فيجد خليطا من الكلمات، تطبع عقل الطفل وتجعله يعاني مشكلة هوية حقيقية، فمن الصعوبات التي تلقاها التعليم هي إهمالنا لتكوين الإنسان وفق ثقافته ولغته لإنتاج وطنية جزائرية، لان اللغة ليست معزولة عن محيطها، والعجز او النجاح مستمد من المجتمع نفسه، فليس لنا الاختيار في تحييد لغتنا لان عدم استعمالها هو حكم بالفشل، وكلما تعلم المجتمع مهارة أو معرفة إلا وأثرت بهما اللغة، فهي ليست مجرد أصوات وصور ملونة بل طبقات من الأحاسيس والأفكار المكدسة عبر قرون من قيمنا وكياناتنا الثقافية والمجتمعية، فعلامات الشخصية كالمعتقد واللغة لا يمكن تغييرها إلا بتغيير محيطها خلال قرون طويلة لأنه لا يتصور عقلا تبديل لغة طفل من الجنوب وتعويضها بالفرنسية وانتظار إنتاج طفل شبيه بالذي تربى في فرنسا.

لقد حاول المتفرنسون إظهار التفوق والاستعلاء على بقية المجتمع عن طريق التظاهر بتكلم الفرنسية، وهو من العيوب التي خلفها المستعمر الذي اقنع هذه الفئة بأنهم نخبة ما داموا يتكلمون اللسان الفرنسي، وهو خطأ ونقص اجتماعي وتربوي، أفرز كسلا عقليا للمثقفين الاجتماعيين الذين مارسوا النقد الاجتماعي لتشخيص المشاكل الاجتماعية والتربوية دون بذل مجهود دراسي وبحث علمي، فالمجتمع يتطلب فكرا مستمرا ونظرا دائما للقيم والمفاهيم لمعالجة اختلالات المنظومة التربوية، فالكل يسعى إلى بناء مجتمع متماسك بقيمه وتاريخه وحضارته دون العودة إلى الإشكال الحضاري.

يقول الجنرال بول مارتي: كل تعليم عربي وكل تدخل من قبل الفقيه وكل ظاهرة إسلامية يجب محاربتها بصرامة تامة (مارتي، 1925، صفحة 241) فاللغة الفرنسية كانت دائما أداة الغزو الثقافي منذ تأسيس مصطلح الفرنكوفونية الذي يهدف إلى الترويج للغة الفرنسية في إطار تذويب ثقافة الجزائريين ومحوها بمنعهم من مدارسهم وزواياهم ومساجدهم، وهذا واقع تاريخي اثبت أن فرنسا استعملت أساليب خبيثة كإظهار المفرنس كشخص متفتح (قطب، 1997، الصفحات 203-

204)[1]، أوحت للكثيرين أن الفرنسية لغة رقي وحضارة، فالمدرسة الفرنسية التي حاولت إلحاق بعض الجزائريين إليها كانت أفكار بعض سياسيها لتسهيل عملية إدماج المجتمع الجزائري في الثقافة الفرنسية لتتمكن من السيطرة الكاملة بعد هدم مؤسساتهم.

لقد رفض المجتمع إرسال أولاده إليها ويرجع ذلك ربما لخوفهم من التنصير أو لما أصابه من نكبات وأزمات (قداش، 2008، صفحة 174)[2].على انه في كل الحالات لا يقبل المساس بدينه الذي ارتبط به وحافظ عليه على مدى أكثر من قرن فالفرنسي في نظره أنجس من الكلاب والخنازير وهو(عبارة عن احتلال بالقوة وإدارة بالسيف وسرقات ثروات وعداوة للإسلام (قداش، 2008، صفحة 183)، اذ لا يمكنه اعتناق الفرنسية التي ترسخت في بعض المناطق بعد استئصال العربية، فقد قرر جول فيري في إطار "سياسته البربرية" إيجاد 08 مدارس ابتدائية في منطقة القبائل على حساب الدولة سميت مدارس وزارية (ريسلير، 2016، صفحة 213).

فكل مجتمع له منظومته الخاصة من القيم الاجتماعية والدينية التي يحرص على إبقائها وترقيتها لا أن يتخلى عنها ويستبدلها، وهي قيم جامعة داخل إطار الأمة العربية والإسلامية لا كما يفرق بين القيم الجزائرية والقيم الإسلامية والعربية، فالنزعات القومية التي كانت ضئيلة الأثر وقليلة الظهور أخذت تتقوى بعد ذلك بسرعة هائلة وأصبحت تفرض نفسها على الاتجاهات السياسية....فكثير من الأمم المغلوبة على أمرها أفاقت من سياستها ،وأخذت تشعر بكيانها الخاص وصارت تسعى إلى تدعيم هذا الكيان (الحصري، 1964، صفحة 38)، فليست الجزائر بمعزل عن بقية الأمة الإسلامية

ولا تزال تحاك ضد الأمة برغم انتهاء الاستعمار القديم وتحرر الأوطان ولو شكليا عند بعضهم وهذا فيه وجه قبول واحترام لان علماء الاجتماع الغربيين وكذا في الاروبيات العربية الفكرية في تحليهم لمرحة ما بعد الاستعمار يفرقون بين (الخطاب الاستعماري) ومصطلح (نظرية ما بعد الاستعمار) (حيدر، 2018، صفحة 11) فهما وان كانا يشكلان حقلا من التحليل الفكري الذي ظهر مؤخرا إلا أن الخطاب الاستعماري يعتبر عما أنتجه، التوجهات الاستعمارية إزاء مناطق العالم فإن

[1] - يحكي الدكتور محمد قطب في كتابه "واقعنا المعاصر" كيف لجأ الانجليز في إطار نشرهم اللغة الانجليزية في مصر الى مضاعفة الراتب الشهري لأستاذ الانجليزية وإبقاء أستاذ العربية في راتب اقل هذه الزيادة جعلت أستاذ الانجليزية يبدو أنيقا في مظهرة بينما أثرت قلة الراتب على أستاذ العربية فاستشكل الناس وتوهموا إن الانجليزية تدعو إلى الرقي والتحضر وأصبحوا يحرضون أولادهم على التوجه إلى الانجليزية واحتقروا العربية.

[2] - من بين الأزمات التي عاناها المجتمع الجزائري: الاستيلاء على ممتلكاتهم وتدمير المحاصيل سنوات :1847،1846،1845من طرف الجراد، وآفة الكوليرا عامي 1850،1849 حيث تراجع ديموغرافيا قدر بـ1 مليون نسمة.

نظرية ما بعد الاستعمار نشأ من افتراض أن الاستعمار الكلاسيكي التقليدي قد انتهى، وانه مرحلة من الهيمنة تسمى النيو ليبرالية قد حلت وأنشأت ظروفا مختلفة. أي أن إبقاء المستعمرات القديمة تحت الهيمنة والاستعمار اجر واقع وان اختلفت الكيفيات والسياسات ولا شك تفكيك المجتمعات وحرب اللغات وتشويه الدين تعتبر أساسيات الحرب الجديدة في ثوبها النيو ليبرالي الجديد.

6.الازدواجية اللغوية كتهديد للأمن الاجتماعي:

إن المتفحص لعمق المجتمع الجزائري يجد مشكلات اجتماعية تحيط بالمدرسة الجزائرية، من ضمنها الازدواجية اللغوية كمشكلة مصطنعة تهدد الأمن الاجتماعي، تحمل طابعا طبقيا كما أسلفنا، فالتقارير التي كتبت في المكاتب بعيدا عن ميدان المدرسة ومشاكلها الحقيقية سوف تنتج لنا جيلا بورجوازيا بعد عشرين سنة (شريط، د.ت.، صفحة 60)، فالمدرسة التي تستورد النظم التعليمية والمواد الدراسية واللغة والرجال من خارج محيطها محكومة بالفشل، لان الوظيفة الرئيسية للمدرسة خلق جيل متلائم مع محيطه لا يمكن أن ينتج عن مدرسة مستورد كل ما فيها، خصوصا إذا كان المستورد قرارات وكتب موجهة إلى معلمين أجانب وفق محيطهم ومجتمعهم لا محيطنا ومجتمعنا (شريط، د.ت.، صفحة 61).

فالازدواجية خطرة على الأمن الاجتماعي عندما نفرضها فرضا، فقد أنتج هذا الوضع فئتين بعد الاستقلال احداهما فرنسية اللغة ارتبطت بمجتمعها من حيث العاطفة وكتبت عنه وعن معاناته وبؤسه إلا أنها ظلت مجهولة لديه بحكم كتاباتهم بالفرنسية[1]، والأخرى تحمل نفس عاطفة محيطها الاجتماعي وتعبر عنه نفس التعبير، لكنها ليست أقرب إليه من الأولى بحكم عربيتهم الكلاسيكية في وسط أمي محروم.

وهناك مشكلة ثقافية أخرى تمثلت في المعركة التي قامت بين دعاة العامية[2] ودعاة الفصحى والتي حاولت إحياء بعض اللهجات الإقليمية في مصر ولبنان والجزائر أضافت تعقيدا آخر لما يعانيه المجتمع الجزائري، فالعالم العربي عاش فترة تاريخية طويلة قبل أن يتغلغل فيه الاستعمار الأوربي، وعاش عللا أنظمة اجتماعية واقتصادية متجمدة، كما عاش على ثقافة مهترئة وان احتفظت

[1]- هناك نماذج كثيرة للمثقفين الجزائريين الذين سجلوا معاناة المجتمع الجزائري بالفرنسية أمثال: مولود فرعون، كتاب ياسين، مولود معمري وغيرهم.

[2]- بدأت الدعوة عند الأوربيين من خلال إنشاء بعض المدارس كمدرسة نابولي 1727م، ومدرسة القناصل بالنمسا 1747م، ومدرسة باريس للغات الشرقية 1759م، كما أن جذورها ترجع حسب محمد شاكر في كتابه (أسمار وأباطيل) إلى عام1664م من طريق البارون (دي ويتز)، لكن ما يعنينا هنا إن هذه الدعوة بدأت في شمال إفريقيا في إقامة (كرسي اللغة المغاربية) بمدرسة اللغات في فرنسا 1920م كما لذلك ملاحق تصور المطلوب.

بمجدها التاريخي والحضاري، يعني ذلك أن الثقافة قد أدركتها الشيخوخة وجرى انفصال بين اللغة المكتوبة والمنطوقة، وأكد عبد الله شريط أن هذا التناقض بلغ أشده في الجزائر للأسباب نفسها، رغم الجهد المبذول الذي يقوم به المثقفون في عملية الاتصال مع جماهيرهم، كما هناك محاولات جادة وراقية متحررة من الديماغوجية[1] السطحية، نشأت على مستوى الجامعات الجزائرية اكتسبت كل الخصائص العلمية المعاصرة، قاومت الوضع الثقافي الجديد بعد الاستقلال الذي جعلنا وجها لوجه بلغتنا وثقافتنا أمام لغات الأمم المتطورة وصير كل قيمنا اللغوية والثقافية فارغة من محتواها النفعي للمجتمع.

7.الغزو الثقافي وتأرجح التعريب:

قال عبد السلام المسدي: (لأول مرة في تاريخ البشرية على ما نعلمه من التاريخ الموثوق، يكتب للسان طبيعي أن يعمر 17 قرنا محتفظا بمنظومته الصوتية الصرفية والتحويلية، فيطوعها جميعا ليواكب التطور الحتمي في الدلالات دون أن ينتزع النظام الثلاثي من داخله، بينما يشهد العلم في اللسانيات التاريخية والمقارنة أن القرون الأربعة كانت فيما مضى هي الحد الأقصى الذي يبدأ بعده التغير التدريجي لمكونات المنظومة اللغوية (العسكري، 2004، صفحة 8)، وفي هذا رد كاف لمن يراهن على إزاحة العربية ومحوها من المجتمع الجزائري الذي حافظ على وجودها طيلة سنوات الاحتلال، مع ما صاحبه من منع التعليم وتهديم المساجد والزوايا، وعمليات تفكيك مستمرة للمنظومة الاجتماعية السائدة وما صاحبها من فقر وبؤس ومجاعات، فالعربية تمر بأزمة ارتبطت بالمنظومة الاجتماعية التي تركها الاستعمار، صعبت عملية التعريب دون الوصول إلى نتيجة مثمرة، فالواقع أن العلوم تدرس بلغة غير العربية، والحاصل أن القضية أصبحت قضية شعب عربي يكافح من اجل ثقافته وتاريخه ودينه، وأوردوا الأدلة والبراهين، وحشدوا الشواهد على أنها أفضل لغة لأفضل امة خلقت للناس، فالإسلام محصن بها وهي محصنة بالإسلام، إذ اختار الله العرب وخصصهم بالقرآن وتحداهم ببلاغته فربطوا بينه وبين العربية، ورأوا أن الوعي القوي يتم من خلال الوعي باللسان والتاريخ لان الهجوم على العربية هو في حقيقته حسبهم هجوم على مجموعة القيم التاريخية والاجتماعية التي تحملها، فلم تصبح بذلك مجرد أداة تواصل بل عبرت أيضا عن بدايات إحساس بالذاتية والهوياتية التي ظهرت ما بعد الاستعمار كمشاريع مجتمعية للنهوض بالأوطان في إطار إيديولوجي يستدعي أسباب القوة من الماضي لإصلاح ما أفسده الاحتلال.

[1] - كلمة يونانية مشتقة من كلمة (ديموس) وتعني الشعب و(غوجية) وتعني العمل، أما معناها السياسي فيعني مجموعة الأساليب التي يتبعها السياسيون لخداع الشعب وإغراءه ظاهرياً للوصول للسلطة وخدمة مصالحهم .

8.خاتمة:

إنّ التقدم والوعي الاجتماعين لا ينتجان من عامل واحد بعينه، بل عملية اجتماعية جدلية تتداخل فيها المعرفة والعلاقات الاجتماعية بحيث يؤثر كل عنصر في كل ما عداه من عناصر، فالعلاقة بين المعرفة التي هي مصدر الوعي الثقافي الذي نحن بصدد الحديث عنه بالأصول الاجتماعية، فهي لا تقتصر على التصور الساذج لعملية الانعكاس إنما تتخطاه إلى كون الأفكار ترتبط بالواقع الاجتماعي المحدد تاريخيا (فريدريك، 1982، صفحة 53)، فالمثقفون جملة عاشوا وسطهم الشعبي الاجتماعي باعتبار مفهوم الارتباط الوثيق بين الإنسان وواقعه الاجتماعي الذي يحدد كينونته ووجوده النفسي و الاجتماعي، فأشكال اللقاءات الجماعية ترسخ معنى الزمن والمكان فترتبط الثقافة والمعرفة بالعلاقات والأنشطة فتصبح عامل تماسك اجتماعي واحد مستلزمات الوجود الاجتماعي يقول شيلر: إن الطابع السوسيولوجي لكل معرفة ولكل أشكال الفكر أمر مسلم به، والأشكال التي تتخذها العمليات العقلية التي تكتسب المعرفة بواسطتها تتقرر جميعا سوسيولوجيا بواسطة البناء الاجتماعي (رمزي، 2001، صفحة 75).

أن المثقفين بنوعيهما رغم انحيازهما إلى وسطهم الاجتماعي فقد ظلا منعزلين عنه، رغم إنهما يعبران كلاهما عن آلامه وبؤسه، ويرجع ذلك حسبه إلى نظرة الاستعلاء عند المفرنسين لما اكتسبوه وحصلوه من مكاسب مادية جعلت منهم ما يشبه طبقة برجوازية تعيش حالة من العزلة عن بقية أفراد المجتمع، كما شكلت الطبقة العربية طبقة أخرى منعزلة أو مجهولة عنه لأنها اتخذت لغة فصحى كلاسيكية في مجتمع يعاني الأمية في عمومه، هذه اللغة التي وصفها بأنها أصيبت بالشيخوخة لأسباب عدة منها التناقض الكبير بين ما هو منطوق ومكتوب، فالمجتمع قد ورث لهجة دارجة ليست لها اتصال لما داخلها من كلمات فرنسية جعلته يجهل ما يدور في كتابات مستغرقة في مواضيع تراثية وتاريخية لا تعني قضايا المجتمع ومشاكل الاجتماعية والمعيشية والثقافية، إن تخلف اللغة الموهوم عند فئة من يرافع ضدها يعوزه الدليل والبرهان، فالفصحى بقيت كما هي محافظة على قواعدها وبنائها وصرفها دائما وعدم استعمالها وترقيتها يرجع أساسا إلى التخلف الحاصل جراء الاستعمار على مستوى المجتمع الجزائري الذي ورث مشاكل وعراقيل اقتصادية ومعيشية كبيرة، فالفرنسية لم تتغلب على عربية الجزائر تغلبا كاملا على الرغم من بقاء الجزائر تحت نير الاستعمار الفرنسي البغيض نحو130 سنة، وعلى الرغم مما بذلته فرنسا من جهود جبارة ليتم لها تغلب، وذلك لاختلاف اللغتين في الفصيلة (عبد الواحد، د.ت.، صفحة 106)، لكن الذي حدث هو اغتراب المجتمع عن العربية الفصحى لطول فترة الأمية المفروضة عليه من طرف المحتل الذي لم يترك له مساحة يرجع فيها إلى ثقافته وموروثة، مما يستدعي إعادة التأهيل والترقية التي يجب أن تمس

المجتمع أولا قبل اللغة، خصوصا وأن الصراع بين الفرنسية وعربية الجزائر لم يترك في هذه اللهجة الأخيرة آثارا قوية من اللغة الفرنسية فحسب، بل كاد ينتهي إلى انقراض اللهجة العربية من السنة كثير من الجزائريين (عبد الواحد، د.ت.، صفحة 107)، ولعل ما دفع إلى بقاء العربية الفصحى على مكانتها هو عدم التمازج بين المجتمع الجزائري والمعمرين المحتلين أول بصيغة أخرى رفض المجتمع لكل احتكاك سوسيولوجي يأتي من المحتل بدءا من رفض الانتماء إلى مدارسهم مرورا إلى مساكنتهم إلا في بعض المناطق الحضرية التي تأثرت تأثرا بالغا على مستوى اللغة والسلوك على حد سواء ، فتغلغل شعب قوي النفوذ حضارة وثقافة وأدبا داخل شعب دونه كفيل بالقضاء عليه وعلى حضارته ولغته[1].

إن صعوبة إكمال عملية التعريب لا ترجع في أساسها إلى اللغة ذاتها بقدر ما يرجع ذلك إلى جملة الأخطاء المرتكبة في سبيل تطبيق هذا البرنامج الذي لاقى معارضة شديدة في بدايته، عالم التعليم عالم مختلف يتميز بالتعقيد، ويتطلب مؤهلين قادرين على فهمه واستيعابه والتعامل مع متغيراته وظروفه (مشعان ، 2006، صفحة 267). خصوصا إذا كان مطلوبا منه في هذه الفترة إحداث تغييرات جذرية على جميع المستويات الثقافية العلمية والاجتماعية لكن الذي حصل هو سرعة في التنفيذ والارتجال في تطبيق مشروع لديه الكثير من التحديات والصعوبات التي جعلت الدكتور شريط يلمح إلى أن المتوجهين إلى التعليم كانوا ضعفاء الطلبة أو بصورة أوضح حجم الراسبون في المدرسة كلفوا بإعادة إنتاجها، إضافة إلى ضعف تأطيرهم وتكوينهم وعدم استيعابهم للمهمة المنوطة بهم، لتصبح المدرسة الجزائرية ميدان تجارب وساحة صراع بين تيارين من الايدولوجيا التي صاحبتها برامج تربوية تنقصها الحاجة إلى الإبداع والفلسفة فنجد(نفس الأهداف وطريقة تعليم واحدة لجميع الأطفال سواء كانوا أغبياء أو أذكياء بؤساء أو أغنياء (قريفو، 1989، صفحة 31) ومن الخلفيات الاجتماعية المتنوعة تضاف إلى ذلك قلة التأطير التي كانت عنوان تلك المرحلة، إن معظم المشاكل والعراقيل التي واجهت ظاهرة التعريب كانت مصطنعة في مجملها رغم ما ذكرناه من أخطاء وارتجال وقلة التأطير إلا أن ذلك لم يثن عزيمة القائمين عليه من مؤطرين ومؤسسات مجتمعية لأنه مرتبط ارتباطا وثيقا بمسألة الشخصية الوطنية واستعادة الهوية

[1] - يورد علي عبد الواحد أمثلة على تغلب الشعب القوي النفوذ وانتصاره على شعوب أقوى أقل حظا: كالفرنسية التي تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها ببلجيكا وسويسرا فأصبحت لغة الحديث والكتابة لجميع سكان (والونيا)، ولنحو 22% من سكان سويسرا كالإيطالية لتي تغلبت على اللهجات المجاورة في سويسرا، فأصبحت لغة الحديث والكتابة لنحو 5.3% من سكان سويسرا.

الإسلامية وتحصين الدولة الحديثة من الاستعمار الثقافي الذي تمثله الفرنسية التي بقيت حاضرة بقوة لتمثل أداة هيمنة واستعمار جديد، فكانت الدعوة إلى ثورية كاملة في جميع المجالات والميادين للتخلص من التبعية المخطط لها فقضية التعريب مطلب وطني وهدف ثوري.

9.قائمة المراجع:

ابن خلدون. (2003). *مقدمة*. لبنان: دار الفكر.

العربي فرحاتي. (ماي, 2015). السياسات اللغوية في الإصلاحات التربوية. *مجلة نقد وتنوير*.

بول مارتي. (1925). *كتاب مغرب الغد*. باريس.

ساطع الحصري. (1964). *أبحاث مختارة في القومية العربية*. القاهرة: دار المعارف.

سعدون المشهداني. (2018). *الشعوبية الجديدة الجذور الفكرية والعقائدية*. عمان: دار ورد للنشر والتوزيع .

سليمان إبراهيم العسكري. (2004). أزمة العربية أم أزمة التعريب. *مجلة العربي، العدد 545*.

صالح خليل أبو أصبع. (2005). *قضايا إعلامية*. بيروت: دار المجدلاوي للنشر، ط2.

عبد الله شريط. (د.ت.). *نظرية حول سياية التعليم والتعريب*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

علي جواد. (1976). *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*. بيروت : دار العلم للملايين.

علي عبد الواحد. (د.ت.). *اللغة والمجتمع*. مصر: دار النهضة .

علي غربي. (2015). اللغة في الجزائر. *مجلة الدراسات الإجتماعية*.

كميل ريسلير. (2016). *السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر 1830-1962*. (نذير طيار، المترجمون) دار كتابات جديدة للنشر.

محفوظ قداش. (2008). *جزائر الجزائريين،تاريخ الجزائر 1830-1854*. (محمد المعراجي، المترجمون) منشورات ANEp.

محمد الشاطر. (1983). *الموجز في تاريخ النحو*. مصر: مكتبة الكليات الأزهر.

محمد العربي الزبيري. (د.ت.). *الغزو الثقافي في الجزائر*. الجزائر: منشورات دار الامة.

محمد قطب. (1997). *واقعنا المعاصر*. مصر: دار الشروق.

محمود حيدر. (2018). *نحن وأزمنة الاستعمار، جزء4، .* المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية.

محمود فهمي حجازي. (1972). *أصول البنائية في علم اللغة والدراسات الاثنولوجية .* بيروت.

محمود محمد شاكر. (1385). *أباطيل وأسمار*. القاهرة: مكتبة الخانجي .

مصطفى الاشرف. (2007). *الجزائر: الأمة والمجتمع*. الجزائر: دار القصبة للنشر.

معتوق فريدريك. (1982). *تطور علم اجتماع المعرفة*. لبنان: دار طليعة .

مليكة قريفو. (1989). *المدرسة الجزائرية من بادي سالي بافلوف*. (محمد جيجلي، المترجمون) الجزائر: المؤسسة الجزائرية للطباعة.

نبيل رمزي. (2001). *سوسيولوجيا المعرفة*. الإسكندرية: دار الفكر الجامعي.

هادي ربيع مشعان . (2006). *مدخل إلى التربية*. الأردن: دار صفاء للطباعة.